

علم الفولكلور ومنهجية دراسته

رئيس التحرير

لفظة الفولكلور مركبة من مقطعين (فولك لور) وترجمتها الحرفية المعرفة الشعبية أو الأثرية الشعبية وأطلق مصطلح (الفولكلور) على المادة التراثية (الفولكلورية). أما العلم الذي يدرس هذه المادة فيسمى (علم الفولكلور) وفي اللغة العربية شاع مصطلح (التراث الشعبي) كمرادف للفظ (الفولكلور) التراث الشعبي أو الفولكلور أوسع بكثير مما نتصور، ويشمل البيئة الشعبية بأوسع معانيها من حيث موجوداتها المادية أي التراث الشعبي وبالمقابل التراث الشعبي الشفاهي والروحي؛ مفردات شعبية تراثية تتميز بأصالتها وعمق جذورها الضاربة في وجدان الجماعات البشرية. إن العمل في حقل الفولكلور أو التراث الشعبي، اليوم قد تطور في العالم ويعتمد المسح الميداني، والدراسات التقليدية، في مجال المأثورات الشعبية في بلدان عديدة من العالم، قطع دارسو هذا العلم أشواطاً بعيدة جداً وعديدة إلا أن هذه الدراسات ومع الأسف لا تزال في بدايتها الساذجة عندنا في كثير من مفردات تراثنا الشعبي مجهول لحد الآن. وإن المتناول منه عندنا لا يقوم على منهجية واضحة علمية وخاصة في المرحلة الأولى من العمل، أقصد مرحلة جمع المواد الفولكلورية النماذج العيانية المادية والنصوص الشفاهية وهذه المواد نحاول جمعها بصورة عفوية وبشكل غير مدروس وبدون منهجية نبنى عليها دراستنا. إن عدم وجود دليل منهجي أي المنهجية تسهل على الباحث الشعبي عمله هو السبب الرئيس إلى جانب أسباب أخرى، أدت إلى عدم وضوح الرؤية في معالجة هذه الدراسات.

إن دراسة أية ظاهرة فولكلورية لا بد أن تستند على منهج مخطط مسبق، وبدون تخطيط مسبق للعمل، يذهب الجهد والوقت هباء، وللحصول على أفضل الدراسات، وأدق النتائج في أبحاثنا الفولكلورية من الضروري مراعاة الأمور التالية:

من الضرورة أن يتصف الباحث الشعبي بقوة الملاحظة ورهافة الحس، وإن يتحلى بثقافة عامة متشعبة، وأن يكون دقيقاً وأميناً، وصادقاً في عمله، وأن يعتمد على عينيه وأذنيه مباشرة أكثر مما يسمعه من الآخرين.

أستعمال طريقة المشاهدة المباشرة أو المسح المباشر هو الأسلوب الناجح في وضع البحوث والدراسات الفولكلورية، على الباحث الفولكلوري أن يزور تجمعات الناس في أماكن معيشتهم، وأن يجري أبحاثه في الأماكن الطبيعية، وأثناء إداء وممارسة أعمالهم .

نقطة أخرى يراعيها الباحث الفولكلوري هي منهج المقارنة في جمع المواد الفولكلورية، وتصنيفها ودراستها . و المفردات التراثية التي يقوم بجمعها من بينات شعبية متباينة، تتطلب مقارنتها مع بعضها وتثبيتها بدقة، عندئذ تكون الفائدة أكبر، كما أن على الباحث الذي يكون محباً لشعبه محباً لعمله محباً لقرينته محباً لمدينته محباً لوطنه، عندئذ يكون محباً للمفردة الفولكلورية التي يمارسها ابن قرينته ابن مدينته ابن وطنه بعكس هذا فهو لا يستطيع حين يود جمع المادة الفولكلورية من كسب ثقة القروي مثلاً لكي يفتح له قلبه، ويكشف له أسرار حياته، وتفاصيل حرفته، ونمط معيشتة.... الخ

نحن إذا اردنا أن نتحدث لنا من نود أن نستخلص منه المفردة التراثية، علينا نحن أولاً أن نفتح ابواب الكلام، علينا أن نتكلم، ونبحث بادئ الأمر في الموضوع المحدد لكي نزيل الحواجز بيننا وبين الشخص المقابل. ننزل الى مستواه نكسب ثقته، حينئذ تنفتح قريحته، ويبدأ الكلام بطلاقة ورحابة صدر، وبراحة نفسية، ولذلك نقول إذا اردنا أن نجري لقاء مع شخص يعمل على جومة الحياكة. هنا من أجل الحصول على معلومات دقيقة وتفصيلية علينا أن نمهد للقاء، علينا أن نضع أسئلة ذكية مسبقاً، لا أن نفاجئ هذا الحرفي بطلب الكلام عن حرفته، بل قبل أن يتكلم علينا أن نبادره بالقول مثلاً: أيها الأخ العزيز إنك تعتمد في حرفتك على مادة العمل الخام الأولى، وهي عندك الصوف بدرجة الأولى ثم الجهاز الذي تعمل عليه، بكل تفاصيله وما يتبعه، والعنصر الثالث والمهم في حرفتك هو أنت.

أصابعك الماهرة التي تعمل على النول. هذا التمهيد وهذه المقدمة ستجعل الحرفي الذي قد يكون شخصاً أميناً لا يجيد خير حرفته، سنجعله يتبسط في الكلام عن حرفته نقوده نحن لنتكلم عن المادة الخام الصوف وكيف يهيئها وكيف يغزلها، وكيف يدخلها في نوله كخيوط، ومن ثم تأتي خطواته الأخرى.

وأثناء ذلك نجعله يعرفنا وبشكل مباشر على جزء بعد آخر من الأجزاء التي تتكون وتتركب منه آلة الحياكة. ومن ثم نسأله عن الأجهزة الأخرى الملحقة بنول الحياكة، والتي يعتمد عليها في عمله. ثم يسأل عن أنواع الأنسجة التي ينجزها أو ينجز حياكتها، ونجعله يتكلم عن تسويقها وعن قطع الملابس التي تصنع منها، عن ألوانها عن أسعارها والى ما شابه ذلك. فإذن لا نترك الحرفي يتكلم ونحن نكتب أو نسجل، بل نستفزه إذا صح التعبير للكلام عن حرفته.

أما بالنسبة لتراث الشفاهي فعلى الأهتمام بأصوات التلفظ (فونوتيك) خاصة بالنسبة للكلمات والتعبير أثناء جمع المواد الفولكلورية، ونقوم بضبطها بصورة دقيقة مثلما يتفوه بها أصحابها، ويستحسن استعمال جهاز التسجيل لذلك.

التراث الشعبي أو الفولكلور ينقسم الى شفاهي وعياني، نذكر على سبيل المثال الشفاهيات الحكاية الشعبية الخرافات الأهازيج ترانيم المهد أغاني الحرف والأعمال الأحاجي الطرائف الأمثال الشعبية الأغاني ومناسباتها أسماء أعلام الناس ومختصراتها وأصولها ودلالاتها.

الأوابد والمعتقدات الشعبية القصص والروايات الدائرة حول المراقد والمزارات المقدسة، وغيرها من الأمور الشفاهية.

أما بالنسبة للمفردات التراثية فهي كل ما يستخدمه الإنسان في حياته في مسكنه في ملبسه في غذائه في تعبه، وفي لهوه وفي العابه وفي حرفه وغير ذلك.

يتم دراسة المادة الخام في تهيئة كل تلك المفردات مسكن ملبس طعام الخ فهي كثيرة ومن المواد الخام التي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية الحجر الطين وسواء منه مفخوراً أو غير مفخور من لبن البناء ثم الخشب الحديد النحاس الذهب الفضة الرصاص القصدير (قلاي) وغيرها من المعادن. وهناك خامات أخرى كالعظم والزجاج.

وبالنسبة للملبس الصوف القطن الكتان الشعر وغيرها. وحول أثاث المسكن لدينا تسمياتها أشكالها صورها الفوتوغرافية رسومها التخطيطية الأماكن التي توضع فيها الحاجيات في البيت إستعمالاتها ولدينا أشياء أخرى وهو ما يخص الزينة والأزياء نسائية رجالية ملابس الأطفال أسماء مفردات ملابس ووظائفها، أثاث البيت ادوات الطبخ والأكل (المطبخ)، الأفرشة اواني حفظ كل ما يتعلق بحياة الإنسان اليومية من غذاء كالحبذ والألبسة وغيرها. وهناك صناعات اليدوية من حيث إستعمالاتها، أقصد مناطق إستعمالها، المواد الحيوانية التي تستعمل في صناعة الحاجيات كما ذكرنا كالعظام والجلود والصوف. المواد المعدنية التي تستعمل في صناعة الحاجيات كالحديد والنحاس وغيرها كما مر بنا، الحرف مثل الحدادة والنجارة والديباغة والسراجة والحياكة وغيرها الفلاحة والمعتقدات الدائرة حول قدسيتها، كل ما يتصل بالفلاحة من أجهزة وأدوات وهي كثيرة، مع صور لها ومخططات واضح تبيين وظيفتها بشكل دقيق .

أما بالنسبة للكساء ملابس وثياب فتصنف حسب الأعمار أسماؤها أنواعها الملابس الخاص بالطفل الرضيع المهد وما يتكون منها، الملابس الخاصة بالطفل القادر على المشي ملابس الصبايا ملابس الشباب الشيوخ أسماء الملابس، ملابس النهار، ملابس الليل، ملابس الأعياد والمناسبات واختلاف الأزياء بين مكان وآخر وبين قرية وأخرى، إجراء دراسات مقارنة بالنسبة لأسماء والشكل في نوع القماش ولذلك يستحسن ان ترفق بصور ومخططات. ونأتي الى الغذاء والمواد الخام المصنوعة منها الأغذية وخاصة في المناطق الريفية انواع المأكولات اسمائها مناسبات صنع تلك الأكلات إن وجدت الصناعة الغذائية البيئية وهي تهيئة المون السنوية وخاصة تلك التي تصنع من الحنطة وغيرها من الحبوب تلك المواد الكثيرة جداً فمثلاً من الحنطة يستخرج البرغل والحبية والجريش والرشته، فضلاً عن الخبز بأنواعه أدوات صناعة هذا الخبز وهذه المواد أدوات خبزها وطبخها .

الأطعمة والأغذية المركبة من الحليب أنواعها طرق تصنيعها أدوات التي تصنع بها والأطعمة من حيث المناسبات أطعمة يومية عامة أطعمة الأعياد والمناسبات والأفراح أطعمة البر والإحسان والنذور وغيرها. وتتحول الى الطقوس والمراسيم الشعبية وهناك مراسيم وطقوس في الزواج في الولادة في العماد في الوفاة وغيرها.

وهناك طقوس مشتركة أو مزدوجة دينية شعبية مكرسة لشهيد أو قديس أو كنيسة أو دير. المائدة وجبات الطعام وعددها في اليوم الواحد. أصول الجلوس على المائدة.

الطب الشعبي ممارسات طب الشعبي من قبل بعض الأشخاص رجالاً ونساءً، استخدام الأعشاب ومواد طبية حيوانية ومعنوية وغيرها فضلاً عن بعض النصوص التي توافق التطبيب المادي كالتعازيم والأحراز والتمائم وغيرها .

الأحلام ظاهرة تفسير الأحلام كتب معتمدة قديمة في تفسير الأحلام. عادات شعبية أخرى مثل قراءة الفال والممارسات السحرية وغيرها . الأشعار الشعبية وما يدعى (دوركثا) بأقسامها تاريخية قصص حكاية تعليمية حكمة شعبية ما يحكي عن الظواهر الطبيعية كوارث الطبيعة عن المجاعات عن الأوبئة عن الآفات الزراعية عن أحلام بطولية أساطير وغيرها .

وهناك من التراث الشفاهي عدا الأمثال والحكم الشعبية و عدا الأهازيج والأغاني والترانيم. تعابير التحية وتعابير القسم والزجر ولغة الطفل ولغة الحيوان (الألفاظ التي تستخدم مع الحيوان) وغيرها وبالنسبة لوسائل الطرب واللهو في مناسبات الأفراح وخاصة مناسبة الأعراس ولدينا الرقص بأنواعه أسماء الرقصات وتحليل الأسم خصائص ومميزات كل نوع من هذه الرقصات رقصات الأنفرادية الرقصات الثنائية الرقصات الجماعية الرقص على شكل حلقات شرح الرقصة حركات الأرجل حركات الأيدي حركات الجسم بشكل عام رقصات رجالية خاصة رقصات نسائية خاصة إن وجد.

تلك هي بداءة أو بداية منهجية قسمناها الى أقسام هي ما يدور حول المحيط الذي نعيش فيه المسكن وحاجيات المسكن الصناعات والحرف الملابس الغذاء العادات التقاليد المعتقدات الشعبية الشعر الشعبي الرقص الأساطير والحكايات الشعبية وغيرها مما يخص الإنسان كل هذه بإمكاننا أن نتعرض لها بشكل جدي علمي مدروس وخاصة وكما ذكرنا بشكل مباشر أي أن نعتمد المشاهدة والمعينة المباشرة أكثر من اعتمادنا على النقل عن الآخرين.

رئيس التحرير